

## الحكاية الشعبيّة

يأتي ملف (الحكاية الشعبيّة) ضمن الملفات التي تنفرد بها (الفنون الشعبيّة) وتتوخّى الوصول إلى جوامع الهويّة العربيّة، والهويّة الوطنيّة الأردنيّة بخاصّة، وحفظ المآثورات التي شكّلت هذه الهويّة بعامة، وقد أسهم في هذا الملف باحثون مشهود لهم في مجال البحث في التراث غير الماديّ، وقدموا إسهامًا جيّدًا تتكامل فيه البحوث لتكوّن فكرة متكاملة عن الحكاية الشعبيّة وتجليّاتها النصيّة المختلفة، والمصادر التي نشكّلت منها عبر العصور، والصور التي جاءت عليها، كأن تكون سلسلة حكاية متصلة كألف ليلة وليلة، والمقامات العربيّة، أو حكايات متفرّقة تعتمد المحفوظات الشعبيّة المرويّة.

وقارئ الملف واقفٌ على الأهميّة الاستثنائيّة للمرويّات الشعبيّة ودورها في تسريب القيم التربويّة والاجتماعيّة للمستهدفين بالاستماع أو القراءة، فضلًا عن كون هذه الحكايات تعبّر عمّا يمور في الوجدان الاجتماعيّ من هموم، أو إحساس بالعجز ممّا حدا به إلى بناء سردياته التي ينتصر من خلالها على الواقع، أو يشكّل بها مواصفات الأبطال المخلّصين، وهو، الشعب، إن لم يستطع ذلك، فإنّه قد كتب مدوّنته التي ستفرس في الأجيال القادمة قيمًا يستندون إليها ربّما تجعلهم لا يمرّون بما مرّ به أسلافهم.

في هذا الملف دراسات أكاديميّة جادّة، وفيه من المعرفة ما يشكّل لبنة أساسيّة للدخول إلى عالم الحكاية الشعبيّة الساحر الجميل.

## الحكاية الشعبية الأردنية:

## ملاحم

محمد وهيب \*



البداية

تبدأ الحكاية في كغيرها من حكايات الأردن الشعبية، ببداية ثابتة محفوظة، مثل: «كان ياماكان، في قديم يازمان، نحكي أو ننام، كان في قديم الزمان....».

ويلاحظ عند الاستماع للحكاية التي تروى على ألسنة أبناء المجتمع أنهم يتخذون لبداياتها أشكالاً وليس شكلاً واحداً؛ فهم يرددون فيها العبارة التقليدية المعروفة في تراث الحياة الشعبية العالمي «كان ياما كان» التي ذكر الباحثون أنها قد توحى بالعراقة في القدم، وهو المعنى الذي ربما كانوا يقصدون إليه فيها، إذ إنهم يتبعونها بقولهم «في قديم العصر والأوان، أو سالف العصر والأوان»، ولا يخفى معنى التجهيل، والمقصود في هذه العبارة، في ما يتصل بتحديد الزمان الذي كان، وهذا التجهيل لمنبع الحكاية أساس في مفهومها، وقد تصبح مجرد شكل افتتاحي، يعرض بسرعة ودون وعي تام به.

وقد يعدّلون على هذه العبارة تعديلاً يخفّف من هذا التجهيل ويشي بطريق القصّ العادي الذي يأخذ من الماضي غير السحيق فيقولون: «كان في قديم الزمان»، أو «كان هون شيخ هالعرب»، أو يطرأ على العبارة نفسها تعديل آخر يقصر الحديث على موضوع بعينه، وكأنه يريد أن يطرده من أذهان المستمعين ما علق بها من حكايات وأحداث أخرى ويريد أن يشوق لأحداث حكايته التالية بطرد ما سواها فيقولون «ما كان هون إلا هالحكاية...»، أو «ما كان أيام زمان ساكن بالمنطقة إلا....».

ويلاحظ أنّ هذه العبارة لا تفرض احترامها على جميع من يحكي حكاية في مجتمعنا، وأنها تحافظ على شكلها التقليدي إلا عند بعض الرواة من الرجال الذين تهّمهم الأشكال المحددة في البدايات وفي غيرها، أما النساء فقد يوردنها في بدايات حكايتهن، على الأقل في الأرياف، أما الرجال فلا يجدون

\* أكاديمي وباحث في الآثار والتراث.

غضاضة من النطق بها كما هي في الفصحى، ومع ذلك فبعضهم لا يرددها، ويضع مكانها بدايات أخرى، منها البداية الدينية. يأتي بعد هذه البدايات على لسان الرواة الشخصية الأولى فيها، الدولة، والشيخ، أو شيخ العرب، والفارس، بعد ذلك تدخل الحكاية في ذكر ما حدث مع هذه الشخصية من أحداث تأخذ في السرد والعرض.

## تركيب الحكاية

والحكاية تقدّم قصة ذات بداية ونهاية، متكاملة، وتمتاز بالتماسك وقوة الحبكة والبناء، وهي تعتمد على حوادث كبيرة فاصلة، وغالباً ماتكون غريبة ونادرة، وهي حوادث كثيرة وكبيرة، وليس فيها شيء من الوقوف على الحوادث الصغيرة والتفصيلات، أو شيء من الاهتمام بالمواقف النفسية والانفعالات. ومع مجتمع الريف ومجتمع المدن، يجد الباحث أنّ مجتمع البادية يشارك في حمل الحكاية الشعبية ونقلها عبر الزمن إلى



الأجيال، تحفل مجالس السمر عندهم بالسؤاليف (الحكايات) التي غالبًا ما يقصّها شاعر بربابة. حيث يجمع فيها بين القصّ النثري وما تجيش به عواطف الأشخاص من مقطوعات شعريّة، حينما يتحلق حوله في شق الشيخ، مجموعة من الأعراب وتدور القهوة المرة (السادة)، فيأخذ في تحديثهم بغرائب الغزوات وما تمّ فيها بين القبائل المتجاورة من عدوان ونهب وسلب ورد وسلب، وما فيها من مغامرات قام بها أبناء شيوخ القبائل، حينما يقع الواحد منهم في حب ابنة شيخ أو قبيلة أخرى، معادية لأبيه، ذلك أنّ أغلب الحكايات في مجتمع البادية تدور حول هذين الموضوعين: الفروسيّة والحب.

## مقدمة

والتقاليد والقيم السائدة في المجتمع، وعند النظر إلى هذه التعريفات للحكاية نستنتج فيها عناصر: الأقدمية، والدوران حول أحداث أو أشخاص، وصانعا خيال الشعب، والرواية الشفوية سبيل البقاء، جزئيات تظلّ تُداول، وتُصدّق على أنّها حقائق رغم خروجها على الحقيقة العلمية أحياناً، وهذا تقريباً ما لاحظته العديد من الباحثين في خصائصها من: العراقة، والمرونة، وحرية الرواية الشفوية بالزيادة والحذف عبر العصور والبيئات.

وتعكس الحكايات الشعبيّة مسألة الفقر بحدّة. ويصادفنا الدخيل والمزارع من الكادحين الذين يكدحون طول يومهم من أجل أن يأتوا بالقوت اليوميّ إلى أبنائهم الذين ينتظرونه بفارغ الصبر، وقد لا يحالف الحظّ ذلك الإنسان الكادح فبييت هو وأولاده على الجوع، وينتظر هذا النوع من الناس الفرصة من شيخ القبيلة حينما يمرّ به ليتعرف حالته ويقوم بمساعدته. ونرى الكبرياء الشعبيّة والعزوف والتعفّف عن أعتاب ذوي السلطان، ونجد الشجاعة الشعبيّة في حكاية ثورة الحمائدة، مثلاً، عندما رفضوا دفع الضرائب في زمن القحط أيام العثمانيين.

والملاحم البارزة في هذه البدايات يحافظ عليها الراوي، أثناء روايته الأجزاء الداخلية من حكايته، فالأثر الديني (صلوا على رسول الله) وعبارات المودة والمجاملة من الراوي للمستمعين (اللّه يمسيكم ويمسيه بالخير)، وتنبههم ليظلوا يتجاوبون معه بين الحين والحين على شكل سؤال مفاجيء: راحوا لمين؟ فلان: وصلوا إلى أين؟ إلى المكان الفلاني، هو يسأل ويجيب مع المجيب منهم، ويتخلل ذلك شرب القهوة والشاي أثناء الاستماع للحكاية.

أما مادّتها، فمن التاريخ الواقعي الذي يرويه شيوخ القبيلة لشبابها، إذ تراهم يذكرون أشخاصاً بعينهم ويحدّثون عنهم، ويلاحظ أيضاً أنّ حكاياتهم تكاد تخلو من العنصر الخرافيّ والأسطوريّ، وتفيض أحاديث البادية حتّى تصل إلى تجمّعات الناس في القرى وفي المدن، فقد كان قسم كبير من الحكايات التي جمعتها من أهل الريف في مجتمعاتنا تتلذّد بحكايات أهل البادية، فحكاية فارس ونجود وحكاية وضحة وابن عجلان، كلها تفوح برائحة البادية، وكذلك حكاية غريسة وزيد في وادي جديد. أما سبب هذه الكثرة من حكايات البادية في جو المجتمع الريفي، فقد يكون راجعاً للتفاعل المستمرّ بين البيئتين، وأنّ البادية قريبة على أطراف الريف، أو لقرب عهد

الفلاحين بالبداوة وعاداتها، أو لتأثر الناس بتغريبة بني هلال وقصص (أبو زيد) وهي تمثل الحياة البدوية بأجلى مظاهرها. وتخلو حكايات البادية من العنصر الخرافيّ والأسطوريّ، ويرجع العديد من الباحثين ذلك إلى الانشغال بأنفسهم وبأخبار غزواتهم وقبائلهم وإبلهم والمياه والمراعي التي عليها ينزلون بين الحين والحين، وينتج عن ذلك أن يصبحوا مجتمعاً محدّداً بنوع من الحكايات دون غيرها آخذين بعين الاعتبار للعادات

## شخصيات الحكاية

والشخصيات في الحكاية واضحة ومحددة، وهي على الأغلب شخصيات نمطية، تتحدد بموقعها في الأسرة، أو بمكانتها في المجتمع، كالأب والابن والزوج والزوجة والكنة والحماة، أو الفارس، وشيخ العرب، أو المزارع، الحصاد، الراعي، التاجر، السيف والخادم والفقير، ولا توصف الشخصيات، ولا تحدد ملامحها الجسمانية أو النفسية، إلا إذا كان فيها عيب، من عور أو عرج أو قصر، مثلاً، أو بخل أو جبن أو خبل، وغالباً ما يكتفى بصفة واحدة، تتحدد بها الشخصية.

وعادة ما توجد شخصية محورية، أو شخصيتان، وتوجد من حولها شخصيات ثانوية كثيرة، وإذا كانت الشخصيات الثانوية ثابتة ومسطحة، فإن أغلب الشخصيات المحورية نامية ومتطورة.

وتقدم الحكايات أنواعاً كثيرة من الشخصيات، في غنى وتنوع كبيرين، فهي تقدم الأب المغرور والأم العطوف، وزوجة الأب الظالمة، والابنة الوفية، والأخت المشفقة، والأخ الغادر، والزوجة اللعوب، والصديق الوفي، والجار الغني، والكنة التي تكيد لحماتها، والحماة التي تبغض كنتها، كما تقدم الحاكم الجائر الظلوم، والسلطان العادل الحكيم، الذكي الماكر، والنديم الوفي المخلص، وشيخ العرب الكريم، والفارس البطل، وهي تقدم تلك الشخصيات، وغيرها، في توازن وانسجام غريبيين، هو توازن الحياة وانسجامها، على الرغم مما يبدو فيها، في الظاهر، من تعدد وتناقض واختلاف.

ويلاحظ أن الحكايات تقدم غالباً الشخصيات القلقة المضطربة،



لذلك يمكننا استنتاج سمات الحكاية الشعبية من المجتمع الذي نبعث منه هذه الحكايات، بل من المادة التي تم جمعها من الحكايات في هذا المجتمع، بحيث أن هذه السمات تنطبق عليها بشكل خاص ودقيق ولا تصلح للحكاية الشعبية بعامة.

## زمن الحكاية:

تمتد الحكاية في الزمان طويلاً، وتشغل حيزاً كبيراً في المكان، فتتغير فيها المواضع، وتتبدل العهود، ولا تنتهي الحوادث حتى يستقر كل شيء، وتتحقق الاحتمالات والتوقعات كافة، وينال كل ذي حق حقه، بما يرضي الجميع، ولذلك غالباً ماتكون النهاية هي الموت، بعد السعادة والاستقرار، فيقال في الختام عن شخصيات الحكاية: «وعاشوا في سعادة ورخاء، وأتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، الموت».

وعلى الأغلب لا يحدد الزمان، ولا المكان، فالزمان هو «قديم الزمان، وسالف العصر والأوان». والمكان هو «بلد من بلاد الله الواسعة»، وقد يحددان تحديداً عاماً.

ويتم تجاوز الأبعاد الزمانية والمكانية في سرعة كبيرة، من غير مبالاة بالعقبات والصعاب، فالأيام تمر كالظلال، ويلاحظ أن المكان يتبدل أثناء سرد الحكاية الواحدة، حيث يرتحل الناس نتيجة لحادثة معينة من مكان إلى آخر طلباً للأمان والاستقرار. ولا يخامرنا شك بأن الحكاية لا تنعزل عن المكان والزمان، وهكذا فإن الحكاية الشعبية تظل تجري في جو واقعي إن لم يكن حدث فعلاً فقد يمكن أن يحدث.



قوتها. إن كيان هذا الإنسان يتصل اتصالاً وثيقاً بإيقاع الحياة وانسجامها.

والحكاية لا تخفي علينا إكبارها للعلم والعلماء حتى ترفعهم أحياناً على درجات الحكم والسياسة، وهي تستمدّ مواقفها الفكرية غالباً من الدين فتقف واعظة مرشدة، وتستعين على ذلك بالقيم الروحية العليا التي استمدتها من الدين ومن التقاليد العربية العريقة في حب الخير، وحب العدل، وإغاثة الملهوف، ووجوب انتصار الحق على الباطل إلى غير ذلك من المواقف التي تجد لها صدى لدى عامة الشعب.

لقد صورّ الشعب بطله مخلوقاً غير عادي فأخذ بصنع الأساطير، وأخذ يصوّر حياته من يوم ولادته إلى يوم وفاته تصويراً فيه من الخيال الشيء الكثير، ثم أخذ كذلك يصنع حول شخصه الأناشيد والأغاني، وما لبث كل ذلك أن تجمع وكون القصص والملاحم. وربما كان شخص هذا البطل غريباً عن الشعب لم يعيش حياته بين أبنائه ولكنّه يكفي أن يكون قد سمع عن غرابة أعماله الشيء الكثير حتى يمجدّه كما لو كان قد عاش بين أبنائه، وذلك صدى لما يسمعه الشعب عن الأبطال الذين أنعموا في صراع دائم مع الآخرين بقصد الاستحواذ على الثروة والمال أو التوسّع. وتسلب الحكاية الشعبية الأضواء على الأبطال وحدهم ولا ترينا الآخرين في بيئتهم إلا بمقدار خدمة هؤلاء للأحداث. وقد لا تذكر الحكاية أحياناً أسماء الأبطال بل تشير إليهم هكذا: الولد والأم والعجوز والأب... وبذلك نلاحظ أنّ الأبطال هم نماذج بشرية وليسوا شخصيات بعينها، إنهم

ولكنّها تنتهي إلى الخلاص مما هي فيه، والتحول إلى الأفضل ومن ذلك حكاية الأب والغولة وتقدم الحكايات الشعبية شخصيات غير بشرية كثيرة، ذات دور فريد ومتميز، وغالباً ماتكون وفية للإنسان، مخلصه له، تساعد على الخلاص، حين لا يجد المساعدة عند البشر.

كما تقدم الحكايات الشعبية شخصيات أخرى غريبة، كالغول والعفريت والمارد والجني، وأكثرها يخدم الإنسان، ويساعده أو يشاكسه مثل: حكاية جن عطاروز أو حكاية مغارة الثور التي تروى وتسرد بأشكال عديده.

إنها كما تبين، تدور حول الموضوع وعن الحدث دون تركيز شديد على الأشخاص، أي أنّ الحكاية تدعو لغايتها كل الناس ولا يهّمها شخص بعينه، والتجربة هي التي تناول التركيز في اهتمام الحكاية واستطالة الحدث هي التي تطيل حجم الحكاية. وفي ما يتصل ببطل الحكاية الشعبية فإنّه قد يدخل تجارب خاصة ويكون فيها مدفوعاً برغبة اكتشاف مجهول، حتى إذا ما انتهت التجربة عاد لواقع الحياة والناس الذين يعيش بينهم، وهم ذوو مواهب متميزة، ولا يتلقون مساعدات من قوى خفية أو غيرها.

كما أنّ مهمّة البطل الشعبي الكشف عن الطريق المؤدي إلى النجاح وإن كان وعراً، وفي هذا الطريق تعترضه العقوبات وتصادفه القوى الشريرة ولكنه من جهة أخرى تعاونه قوى خيرة على تحطيم تلك العقبات. ومثل هذا البطل يظهر بصورة متعدّدة في القصص الشعبي في مجموعة: فهو شخص واقعي في الحكاية الشعبية، وهو مغامر خيالي في الحكاية الخرافية والأسطورة.

إن المصدر الأوّل والآخر لفكرة البطولة يرجع إلى إعجاب الشعب بفكرة البطل. فالحياة بجوانبها المختلفة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل عناصر بطولية تغلبت على الشر وتغلبت على عناصر الضعف والنقص حتى شارفت الكمال. ومن هنا كانت الأساطير مليئة بعناصر البطولة، بطولة الآلهة الذين أخذوا يتصارعون حتى استقر الكون على ما هو عليه، ومن هنا نشأت فكرة الإنسان الإلهي، ذلك الذي استطاع بصفات بطولية وروحية أن يطوع الطبيعة وفق رغبته أو يشاركها

هو بطل الطبقة، والحكاية الشعبيّة حين تأخذ على عاتقها الخوض في تناقضات التركيب الاجتماعي لا تسلم من أن تكون متحيّزة لوجهة نظر معيّنة هي أولاً وأخيراً وجهة نظر الطبقة التي تبتدعها وتتداولها.

تتوسل الطبقة المسحوقة لتحقيق أهدافها وطموحاتها بالصبر وتخيل فرح خيالي، مثال ذلك صبر البطلة الطويل في هذا الصبر الذي جعل قلب الطاغية، الغول سارق الأولاد، يلين وجعل ضميره يصحو فأعاد الأولاد لأهمهم وكفر عن ذنبه بقوله أنه.

لا يردّد الناس قصّة ينتصر فيها البطل الشرير لأنّ ذلك يتعارض مع أحلامه وأمانيه، وفوق ذلك فالبطل الشرير لا يمكن أن يوصف في الحكاية الشعبية بأنه حسن الصورة لأنّه لا يمكن أن يتصوّر في موضع الخير والشر إلاّ ما آمن به وأعجب به ورضي عنه.

ونرى أن أفضل الفضائل التي يتّصف بها البطل الشعبيّ هي الشجاعة. لأنّ القوة هي سبيل الطبقة المسحوقة للحصول على ما حرمت منه. وهكذا نرى أن البطل الشعبي هو شجاع دائماً، وقادر على التغلب على خصومه حتى ولو ألقوا به في قرار الأرض وحرموه نعمة البصر. ونجده أخيراً وقد هزم أعداءه وتزوج الأميرة وعاش معها حياة سعيدة، وبذلك فهو يجسد طموح الطبقة التي صنّعتة والتي تحلم بهزيمة جلاديها والعيش برغد وهناء. وكذلك فالبطل لا يمكن أن يكون ممّن بخلوا في إكرام الآخرين أو تخلّوا عن معונاتهم، ذلك لأنّ الوجدان الجمعي للناس يرفض هذه الصورة ولا يمكن أن يردد حكاية فيها مثل ذلك البطل.



ابن العجوز والعجوز والكنّة، وهكذا فإنّهم نماذج أكثر من كونهم أبطالاً لهم ملامح معينة ومكونات خاصّة لشخصيتهم، نماذج يمكن أن يكونوا في هذه القرية أو تلك أو في هذا الجيل أو ذلك. وفي حكايات أخرى قد يذكر اسم البطل الرئيسي في حكاية مثل حكاية علي اللوانسة. ويبقى الآخرون نماذج بشريّة تحمل صفات: نجار أو سلطان أو شيخ... الخ. وهكذا فإنّ الحكاية لا تحدّثنا عن بطل صنعه خيال رواية وأضفى عليه ملامح خاصّة بل إنها تتناول بكلّ بساطة النماذج البشريّة الموجودة في البيئة المعيشة.

إنّ البطل الفولكلوريّ، بطل الحكاية الشعبيّة، بطل خارق لكلّ ما هو عادي ومألوف. ساحر بكلماته وأفعاله، بحياته وموته، أما الأشرار الذين يقفون في وجه البطل فإنّما أن يتغلّب عليهم أو يطيح بأعناق قاتليه حتى ولو بطريقة ما بعد مماته.

ويكاد يخلو هذا البطل من أية ذاتيّة محقّقة فهو خلاصة نقية للجماعة، وهو بطل متجاوب مع روح الجماعة أو الطبقة التي ينتمي إليها، وليس البطل الفولكلوري بطلاً بذاته إنّما هو تجسير لأحلام وآمال طبقة من الناس خلقته ووصفت له مساراً من الأحداث انتظم ضمن حكاية شعبية معينة، ذلك لأنّ الخيال الشعبي الذي صنع تلك الأفكار المطروحة في الحكايات الشعبيّة ليس مجردّ سياحة وهمية في عالم الأحلام وإنّما هو أحد أشكال الروح الشعبيّة وقد تجسدت في بطولات تتباين رموزها كلما اختلف الإطار الفني، وبهذا المفهوم فإنّ البطل

